المذاهب الدينية في بلاد الشام وأثرها في الجانبيين السياسي والفكري خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة (٤١هـ/ ٣٠٠هـ) (٦٦٢م /٩١٣م)

إعداد

مشاءالله شنشان عثمان عرابي

أ.د أحمد عبد السلام ناصف

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية كلية الأداب – جامعة طنطا

د محمد السيد فياض

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة المساعد كلية الآداب – جامعة طنطا

المستخلص:

يعد مذهب الإمام الأوزاعى من المذاهب الفقهية السنية التى شهدت نشاطاً ملحوظاً ببلاد الشام خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، حيث كان لمولد واستقرار الأوزاعى ببلاد الشام أثر فى انتشار مذهبه بها. كان مذهب الأوزاعى ينتمى إلى الحديث، فكان يقيس الحياة بمقياس نصوص الوحى والسنة النبوية، وقد اتبعه أهل الشام والفقهاء المعاصرون له فى بلاد الشام على هذا المنهج.

أن الفقه الإسلامي لم يتم تدوينه، ولم يتم ترتيبه قبل عهد الأوزاعى؛ ولكن الظروف اقتضت- لأسباب مهمة- أن يدون الفقه الإسلامي، حتى أصبح وحدة مستقلة فى تميزه وتمام نضجه عما كان، فيعد الأوزاعى حامل للواء هذا النشاط العلمى بالشام، بالإضافة إلى فضله الكبير فى تدوين الحديث النبوي الذى هو المادة الواسعة للفقه الإسلامي.

وقد قام الأوزاعى بوضع كتاب لمعالجة القضايا التى تتعلق بأحكام الحرب، ومعاملة أفراد العدو، وتوزيع الغنائم، والتى نشأت عن الفتوحات فى بداية ظهور الدعوة الإسلامية، وتطرق إلى بعض القضايا والمبادئ العامة، فجاءت أحكامه بناءً على دراسة عملية نتيجة احتكاكه بشئون الحرب والعدو ومواطنى الدول غير الإسلامية.

لقد أثر الإمام الأوزاعى على المجتمع الشامى بجميع فئاته، فكان لمذهبه دور كبير فى الترابط والتضامن والتواد بين أبناء الشام.

كما شارك الإمام الأوزاعى فى الأحداث السياسية التى عاصرها وذلك من خلال تقديم الوعظ والنصح للخلفاء والولاة إما عن طريق المكاتبة أو عن طريق لقائهم ومحادثتهم.

الكلمات الإفتتاحية: المذاهب الدينية، فقه، الأوزاعى.

مذهب الإمام الأوزاعي: -

اشتقت لفظة المذهب من الجذر اللغوي (ذهب)، فيقال ذهب ذهاباً وذهوباً، فهو ذاهب وذَهوب والذهاب تعني السير والمرور[١]. ومن اشتقاقات لفظة ذهب (المذاهب) وهى سيور تُموُّه بالذهب، وكل شيء مموه بالذهب فهو مُذَهَبٌ[٢]. ومنها أيضاً (المذهب) وهو موضع ومكان المتوضأ[٣]، والمذهب تعنى أيضاً "الأصل". فيقال: ما يدرى له أين مَذهَب، أي لا يدرى أصله[٤]. كما يطلق المذهب على "المعتقد" الذي يذهب إليه. فيقال ذهب فلان مذهباً حسناً متبعاً طريقة حسنة، وفلان يذهب إلى قول فلان أي يأخذ به، وذهب مذهب فلان قصد قصده وطريقه[٥].

أما معنى المذهب فى الاصطلاح فهو الاعتقاد بآراء فقهية وحكمية أوضحها الفقهاء بآرائهم. وهى لا تمثل رأياً اجتهادياً إزاء النص الثابت، بل هى عملية بناء فكري تطورى مرتبطاً بالرواية لمفهوم الاجتهاد[٦].

مذهب الأوزاعى بالشام وأثره العلمى والاجتماعى والسياسي على بلاد الشام:

١-فمن الناحية الثقافية:

يعد مذهب الأوزاعي من المذاهب الفقهية السنية التي شهدت نشاطاً ملحوظاً ببلاد الشام خلال القرون الثلاثة الأولي للهجرة، حيث كان لمولد الإمام الأوزاعي ونشأته ببلاد الشام إحدى حواضر الإسلام العامرة بالحديث والفقه؛ واستقراره فى دمشق ثم بيروت - أكبر الأثر فى انتشار مذهبه بهذه البلاد.

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت،١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ط٢، ج٢، صـ٣٦٢؛ ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب وآخرون، دار المعارف، القاهرة ،ج٣، صـ ١٥٢٢.

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٢، صـ٣٦٢.

(٣) الزمخشري، أساس اللغة، تحقيق محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج١، صـ ٣٢١.

(٤) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج١، صـ٨٦.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، ج٣، صـ١٥٢٢.

(٦) القرافي، الإحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام، اعتني به عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر، بيروت،١٤١٦هـ- ١٩٩٥م ، ط٢، صـ ١٩٥-١٩٦.

فكان الإمام الأوزاعي إماماً فذاً عارفاً مهتماً بالحديث له مواقف وآثار، وفرض فتواه على الناس لما تحمل من قوة وطرح ومصادر استنباط ورجحان عقل، فكان لابد أن يحوز على المكانة التى وصل إليها ابتداءً من منطقته التي ترعرع فيها ونبغ ثم إلى المناطق الأخرى التي سار إليها تلاميذه وأخذوا فتواه إليها.

لقد نبغ الإمام الأوزاعي فى علم الفقه ووصل فيه إلى مكانة كبيرة جعلت مذهبه يحصل على السيادة ببلاد الشام حوالي مائتين وعشرين سنة(١).

وعماد مذهب الإمام الأوزاعي فى الفقه قائم على منهج الاتباع. ولعل ذلك يعود إلى أنه كان قد نشأ محدثاً، فاستتبع ذلك تحرجه من إبداء رأيه الشخصى فى مسائل الحياة والناس مالم يكن له سند شرعي من القرآن أو الحديث(٢).

وبذلك كان مذهب الأوزاعي ينتمي إلى الحديث، فكان يقيس الحياة بمقياس نصوص الوحي والسنة النبوية(٣)، وقد اتبعه أهل الشام والفقهاء المعاصرون له فى بلاد الشام على هذا المنهج(٤).

فكان الإمام الأوزاعي يستند فى فتواه وآرائه الفقهية إلى القرآن والسنة، فنجده ضد الرأي والعمل به فى المسائل الفقهية، ولم يكن الأوزاعي وحده ضد الرأي بل كان غيره معه أو أسبق منه فى ذلك (٥)، وأظن هذه الطريقة وهي الأخذ بالسنة هى رأى الأوزاعي وآراء كل فقهاء

---

(١) لويس شيخو، تحقيق تاريخ بيروت لصالح بن يحيي، مجلة المشرق، المجلد الأول، ١٨٩٨م، صـ ١٣٢؛ مؤلف مجهول، الرسائل الايمانية، صـ ١٦٠.

(٢) الذهبى، تذكرة الحفاظ، ج١، صـ ١٨٠؛ ابن عدى، مقدمة الكامل فى الضعفاء، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، صـ ٨٨؛ القرطبى، جامع بيان العلم، تحقيق أبو الأشبال الزهيرى، دار ابن الجوزى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج٢، صـ ٣٦؛ خليل ياسين، الشعر فى بلاد الشام والجزيرة من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د.ت)، صـ ٧٢.

(٣) العلماء أربعة (مالك بالحجاز والأوزاعي بالشام والثوري بالكوفة وحماد بن زياد بالبصرة)، ابن عبد البر، الانتقاد فى فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء مالك والشافعي وأبي حنيفة، مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥٠هـ، صـ ٢٨؛ السيوطي، تدريب الراوي فى شرح تقريب النواوي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م، ج٢، صـ ٤٠١.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم ،صـ١٧٩-١٨٠؛عمر كحالة، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، ج٥، صـ١٦٣.

(٥) سبقه الزهرى وكان معاصراً له الإمام مالك صاحب مدرسة الحديث فى الفقه فى المدينة والإمام سفيان الثورى. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٣٥، صـ ١٦٧-١٨٣.

السنة الذين كانت طريقتهم مثلاً للسلامة من آفات الجدل وحب الدنيا وطلب المعالي وأغراض النفس(١).

وإذا تعرض لبعض المسائل الفقهية وحكم فيها برأيه يكون بإمعان وإحكاماً للعقل، وبعد فترة إذا أتضح له أن هذا الرأي غير صحيح فإنه لا يتورع من أن يغيره(٢)، أما إذا كانت الفتوة صادرة عن نص فلم يمن يتراجع عنه(٣).

وقد جمع الأوزاعى بين الحديث والرأى، فكثيراً من المسائل حكم فيها عقله عند الرجوع إلى الحديث وهذا ما أكسب آراءه الفقهية صفة العقل والمنطق(٤).

وقد أشيع مذهب الأوزاعي الفقهي عن طريق:

الأول : مجالس العلم التى يلتقي فيها الطلاب فيسألونه ويجيبهم.

الثاني : كتابة الرسائل إلى ذوي السلطان وإلى أشخاص معينين.

فكانت حلقات الإمام الأوزاعي العلمية لا تتوقف وعليه تتلمذ جماعة من أهل الشام، كما كانت فتاواه فى القضايا المستجدة فى عصره من الأسباب التي أدت إلى انتشار مذهبه(٥)، هذا بالإضافة إلى السلطة الدينية التى تزعمها الأوزاعى بالشام بسبب هيمنة مذهبه على الشام، وموهبة الأوزاعى في الخطابة والتي اتضحت من خلال رسائله التي أرسلها إلى الولاة والخلفاء(٦)، كما عد الأوزاعى إمام أهل الشام فى عصره فتلك العوامل ساعدت على انتشار

---

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، صـ٢٠٥؛ الشاطبي، الاعتصام، ج١، صـ ١٣٢.

(٢) الرازى، الجرح والتعديل، ج١، صـ ٢٠٤؛ الأصبهانى، حلية الأولياء، ج٦، صـ ١٣٦.

(٣) الطبرى ، اختلاف الفقهاء، تحقيق محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، صـ ٩.

(٤) الطبرى، اختلاف الفقهاء، صـ ٣٠-٩٦.

(٥) سئل الأوزاعى عن :" حصن نزل به المسلمون وأشرف عليه رجل منهم فأسلم ثم فتحوا الحصن فادعى كل رجل منهم أنه هو الذى أسلم وهم عشرة. قال يسعى كل رجل منهم فى قيمته إذا لم يعرف ويترك له عشر قيمته". الطبرى، اختلاف الفقهاء، صـ ٩٦-٣٠.

(٦) فمن مميزات الإمام الأوزاعى الفصاحة وحسن البيان، فقد عرف عنه فصاحة اللسان، وحسن ألفاظه وجودة عباراته، وهذا الأمر جعل الخليفة العباسي المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٤- ٧٧٥م) يتعجب كثيراً منه ، فكانت رسائل وكتب الأوزاعى تنسخ فى دفاتر، وتوضع بين يدى الخليفة العباسي المنصور، فَيُكثر النظر فيها، وقد قال: أبو جعفر المنصور يوماً لأحد كتابه:" ينبغي أن نجيب الأوزاعي عن كتبه جواباً تاماً، فقال له كاتبه:" والله يا أمير المؤمنين ، ما أحسن ذلك، وإنما أرد عليه ما أحسن وإن له نظماً فى الكتب، لا أظن أحداً من جميع الناس يقدر على إجابته عنه، وأنا أستعين بألفاظه علي من لا يعرفها، مما نكاتبه فى الآفاق"، فكان =

مذهبه فى بلاد الشام، حيث لم يكن يتولى تلك الوظائف بدمشق حتى أواخر القرن الثالث الهجري إلا أوزاعي المذهب، هذا بالإضافة إلى تعدد المجالس الفقهية لأنصار المذهب فى المسجد الجامع بدمشق [١].

ومن الأسباب أيضاً التي ساعدت على انتشار مذهب الأوزاعي واستمراره فى بلاد الشام قرابة مئتي سنة المنزلة العظيمة التي حصل عليها الأوزاعي فى الحديث والفقه ومن خلالها تمكن من نشر علمه ومذهبه فى الشام بنفسه، وإفتاء الناس فى دمشق عاصمة الخلافة الإسلامية فى إحدى الفترات الزمنية، فهذه الأسباب ساعدت على انتقال مذهبه إلى بلاد الأندلس والمغرب[٢] واستمر العمل به فى تلك البلاد زهاء خمسين سنة[٣].

وبعد سقوط الدولة الأموية فى بلاد الشام وانتقالها إلى بلاد الأندلس أخذت معها ذلك المذهب الذي كان يؤخذ به فى دمشق عاصمة الخلافة فى أيامهم، وبعد دخول العباسيين الشام

=

الأوزاعي كثير الكتابة لأبي جعفر المنصور وولي عهده المهدي وإلى وزرائه وعماله في رعاية شئون الناس. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٧، ص . ١١٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، صـ ١١٧؛ العامري، غربال الزمان فى وفيات الأعيان، دار الخير للنشر، دمشق، ١٩٨٥م، صـ ١٤٥؛ ابن زيد الحنبلي، محاسن المساعي، صـ ١٢٠.

(١) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨٣هـ- ١٩٦٤م، ط١، ج١، صـ ٣٢٦، طه الولي، عبد الرحمن الأوزاعي شيخ الإسلام وإمام أهل الشام، دار صادر بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، صـ ٥٨.

(٢) ساد مذهب الأوزاعى فى البداية ببلاد الأندلس والذى فى الوقت ذاته مذهب أهل الشام، واستمر العمل بمذهب الأوزاعى بالأندلس حتى زمن الحكم بن هشام (١٥٤-٢٠٦هـ/ ٧٧١-٨٢٢م) ، كما ساد مذهبه فى المغرب وذلك قبل انتقال أهل المغرب للمذهب المالكى، وقد دخل مذهب الأوزاعى الأندلس على يد تلميذه صعصعة بن سلام، وظل العمل بالمذهب فى جزيرة الأندلس حتى غلب عليها مذهب الإمام مالك وذلك حتى عام(٢٢٠هـ/ ٨٣٥م). الحميدى، جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأنداس، تحقيق بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ط١، ٢٤٤؛ الضبى، بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبيارى، دار الكتاب المصرى، دار الكتاب اللبناني، القاهرة- بيروت، ١٩٨٩م، ج١، صـ ٢٩٤؛ المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب فى ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، ١٩٦٨م، ج٢، صـ ٢٥١؛ النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج١، صـ ٢٩٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، صـ ٢٠٩؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ، ط١، ج٦، صـ ٢١٩.

(٣) الحميدى، جذوة المقتبس، صـ ٢٤٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، صـ ٢٠٩.

وسيطرتهم عليها ظلت بلاد الشام إحدى حواضر الإسلام العامرة بالحديث والفقه على هذا المذهب، والتف حول الأوزاعي جماعة كبيرة من العلماء الكبار، حملوا عنه علمه، ونشروا حديثه وفقهه، فصار له مذهب مستقل، عمل به الناس بعده فى الشام وفى المغرب والأندلس(١).

لقد كان الإمام الأوزاعي من العلماء، الذين عاصروا الدولة الأموية فى أوج عظمتها وقوتها، وانتشار الفتوحات الإسلامية فى عهدها حيث بلغت حدود الدولة الإسلامية من نهر السند شرقاً حتى بلاد الأندلس غرباً، كما شهد بداية الدولة العباسية وقطع شوطاً كبيراً فى حياته أثناء العصر العباسي الأول كل ذلك ساعد على انتشار مذهبه واستمراره خلال القرون الثلاثة الأولي للهجرة (٢).

فقد تصدر الإمام الأوزاعي بمذهبه المستقل رئاسة الفتيا ببلاد الشام فترة حياته كلها، وبهذه المكانة التي حصل عليها فقد أشاد به العلماء وذلك لعلمه الواسع وعدله، قال أبو إسحاق الفزاري:" ما رأيت مثل رجلين الأوزاعي والثوري، الأوزاعي رجل عامة، والثوري رجل خاصة، ولو خيرت هذه الأمة لاخترت لها الأوزاعي لأنه أكثر توسعاً وكان والله إماماً"(٣).

ذاع صيت الإمام الأوزاعي وانتشر فكره واعترف له العلماء بالفضل فى الفتيا والعلم، مما جعل الإمام الشافعي يقدمه على الإمام مالك(٤) واحترمه الأحناف واعتبروه حينما وصلهم فقهه وردوده فى مجال السير عالم الأمة الإسلامية وتوالي فى الثناء عليه ومدحه وإجلاله أشياخه وأقرانه وتلامذته ومن بعدهم من أئمة الإسلام(٥).

فإشادة الكثير من أكابر العلماء بمكانة و علم الأوزاعي خاصة فى القرن الثالث الهجري/ العاشر الميلادى ذلك القرن المشمول بخيرة العلماء فى زمانه وذلك لأنه تعرض وعالج الكثير من الأمور الفقهية التى عجز عنها كثير من علماء عصره(٦)، فنجد أنه أجاب على الكثير من

---

(١) النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج١، صـ ٢٩٨.

(٢) المقدسى، أحسن التقاسيم، صـ ١٧٩؛ ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ج٣، صـ ٩٢.

(٣) انظر: الرازي، الجرح والتعديل، ج١، صـ ٢٠٧؛ ابن زيد الحنبلي، محاسن المساعي، صـ ٩٥.

(٤) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ج٧، صـ ١١٣.

(٥) الدار قطنى، سنن الدراقطنى، دار ابن حزم، بيروت- لبنان، ١٤٣٢هـ/ ٢٠٠١م، ط١، ج٣، صـ ١٦٤؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٣٥، صـ ١٧٢؛ابن عدى مقدمة الكامل فى الضعفاء، صـ ٨٨.

(٦) سوف يتم إيضاح المسائل الفقهية التي عجز عنها بعض العلماء وأفتى بها الأوزاعى بالفصل الرابع.
الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، صـ ١٨٠؛ ابن عدي، الكامل فى ضعفاء الرجال، صـ ٨٨؛ عبد الستار الشيخ، الإمام الأوزاعي، صـ ٩١.

المسائل الفقهية والتي قدرت بـ "سبعين ألف مسألة"[١]. فكان الأوزاعي من أئمة المذاهب المتبعين كمالك وأبى حنيفة، فقد لبث أهل الشام إلى أواسط القرن الرابع الهجري يعملون بمذهبه[٢].

وَعَدَّ المؤرخون الإمام الأوزاعي أنه أكثر فقهاً من الإمام مالك عالم المدينة،[٣]، فكان الاوزاعي إماماً مجدداً وله طريقته فى الفقه التي اختلف بها عن كثير من الفقهاء المعاصرين له[٤].

والفقه الإسلامي لم يتم تدوينه، ولم يتم ترتيبه" بأن تكتب مسائله مبوبة ومفصلة" قبل عهد الأوزاعى؛ لكن الظروف اقتضت – لأسباب مهمة- أن يدون الفقه الإسلامي، حتى أصبح وحدة مستقلة فى تميزه وتمام نضجه عما كان، فيعد الأوزاعى حامل للواء هذا النشاط العلمى بالشام، بالإضافة إلى فضله الكبير فى تدوين الحديث النبوى الذى هو المادة الواسعة للفقه الإسلامي[٥]، وقد سلك الأوزاعى نهج أهل الحجاز والمحدثين، فنجد أن فقههُ يغلبه حديثهُ[٦].

الأوزاعى ودوره فى القانون الدولى الإسلامي:

لقد رابط الأوزاعى مدة طويلة من حياته فى ثغر بيروت[٧] وكانت لهذه المرابطة أثر كبير فى فى فقهه فجعلته على تعامل مباشر مع أمور الحرب والقتال وعلى دراية كاملة بمعاملة الدول غير المسلمة ومواطنيها، فأثناء رباطه فى ذلك الثغر قام بوضع كتاب "السير"[٨] ، فكان لهذا

(١) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ج٧، صـ ١١١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، صـ ١١٦؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٦، صـ ٢١٧.

(٢) المقدسى، أحسن التقاسيم، ١٧٩؛ ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ج١، صـ ١٩٠؛ ابن العماد ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط – محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق– بيروت، ١٤١٣هـ–١٩٩٣م، ج١،ط١، صـ ٢٤١.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٧، صـ١١٣.

(٤) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، مكتبة المتنبي، القاهرة، صـ٣٧؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٣٥، صـ ١٩٥.

(٥) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ج٧، صـ ١١٣؛ محمد على السايس، تاريخ الفقه الإسلامي، دار الكتب العلمية، العلمية، بيروت،(د.ت)، صـ ١٠٢.

(٦) الذهبى، سير أعلام النبلاء، ج٧، صـ ١٢٠.

(٧) ابن حجر العسقلانى، تهذيب التهذيب، ج٦، صـ ٢٤٢.

(٨) يقصد بها" تصرف الدولة مع الشعوب الأخرى" أشرف عباس القاسمى، أثر الإمامين الأوزاعى والشيبانى فى فى تدوين الفقه والسير، مجلة الداعى الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند، الهند، رمضان – شوال، ١٤٣٤هـ/ يوليو – سبتمبر ٢٠١٣، العدد ٩–١٠، السنة ٣٧، صـ ٣٥.

الكتاب أثر بالغ فى عام الفقه والقانون الدولى الإسلامي، فيعد الأوزاعى من أوائل الفقهاء الذين عالجوا " السير" وجعلوها موضوعاً مستقلاً عن باقى موضوعات الشريعة.

وقام الأوزاعى بوضع ذلك الكتاب عندما عثر على كتاب للإمام أبى حنيفة فى بعض المسائل الفقهية المتعلقة بأمور الحرب والأسرى، وكان رد الأوزاعى بليغاً، ولم يصل إلينا الكتاب كاملاً إلا ما نقله عنه الإمام الشافعى فى كتابه "الأم"(١).

وقد كرس الأوزاعى اهتمامه فى ذلك الكتاب لمعالجة تلك القضايا التى تتعلق بأحكام الحرب، ومعاملة أفراد العدو، وتوزيع الغنائم، والتي نشأت عن الفتوحات فى بداية ظهور الدعوة الإسلامية، وتطرق إلى بعض القضايا والمبادئ العامة، فجاءت أحكامه بناءً على دراسة عملية نتيجة احتكاكه بشئون الحرب والعدو ومواطنى الدول غير الإسلامية(٢).

وقام الشافعي وهو لم يعاصر الأوزاعي بوضع كتاب الأوزاعى "السير" فى جزء مستقل من كتابه "الأم"، حيث شرح فيه رأي الأوزاعي فى مسائل الجهاد مقارنة برأي أبي حنيفة وتلاميذه من بعده وانتصر فيها الشافعي لمذهب الأوزاعي الذي اعتمد فى إجابته على المسائل الفقهية فى الجهاد على السنة(٣).

فنجد أن الأمام الأوزاعي تصدر الزعامة الفقهية فى ذلك الوقت بين معاصريه من علماء الفقه آنذاك(٤) والدليل رأى السلف فيه وفى علمه وزهده وعبادته وقيامه بالحق(٥)، وكثرة حديثه،

---

(١) الشافعى، كتاب الأم، دار الغد العربي، ط١، ١٤١١هـ /١٩٩٠م، ج٧،صـ ٣٤٣؛ الشيبانى، كتب السير" القانون الدولى الإسلامي" ، تحقيق مجيد خدورى، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٠م، صـ ٣٧؛محمد أبو زهرة، أبو حنيفة حياته وعصره وآراؤه الفقهية، دار الفكر العربى، (د.ت)، صـ ٢١٤.

(٢) الشافعى، الأم، ج٧، صـ ٣٤٣: ٣٥٠.

(٣) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، صـ ٣٩؛ ابن عبد البر، الانتقاء فى فضائل الأئمة مالك والشافعى وأبو حنيفة، صـ ١٤٢،١٤٠.

وقد جمع أحد تلاميذ الإمام أبي حنيفة– كتاب سير الأوزاعي وآرائه الفقهية، مقارنة بآراء أبي حنيفة وانتصر فيها لآراء ومذهب شيخه ومعلمه أبي حنيفة. ومن هذه المسائل الفقهية " سئل أبو حنيفة: عن الرجل المسلم يشتري أرضاً من أرض الجزية، فقال: هو "جائز" وقال الإمام الأوزاعي:" لم يزل أئمة المسلمين ينهون عن ذلك ويكتبون فيه ويكرهه علماؤهم". قال تلميذ أبي حنيفة:" القول ما قال أبو حنيفة"، وقال الشافعي:" وقد أجبتك في هذا". يعني الرأي الصواب للإمام الأوزاعي وهو السنة. الشافعي، الأم، ج٧، صـ ٥٠٤.محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٩، صـ ٣٦٤.

(٤) المزى، تهذيب الكمال، ج١٧، صـ ٣١٣.

(٥) السيوطى، طبقات الحفاظ، تحقيق على محمد عمر، مكتبة وهبة، ١٣٦٣هـ/ ١٩٧٣م، ط١، صـ ٧٩.

وغزارة فقه، وشدة تمسكه بالسنة، وبراعته فى الفصاحة، وإجلال أعيان أئمة عصره من الأقطار له، واعترافهم بمرتبته(١).

٢-الناحية الاجتماعية:

تميز الأوزاعى بشخصيته المهيبة للعدالة، وهذا الأمر جعل الناس يتقبلون نصائحه، ففرض الأوزاعى شخصيته لدى العامة والخاصة.

لم يمنع تراجع مذهب الأوزاعى أن نلمس فعلية شخصيته وأثرها فى نفوس معاصريه، فقد استطاع فرض سيطرته الروحية والقومية على أبناء زمانه(٢)، فلم يكن الأوزاعى إماماً يهتم بالعلم وتحصيله ونشره بل اهتم بمجتمعه" وطنه" الذى نشأ فيه(٣) فنجد آثار مذهب الأوزاعى على المجتمع الشامى بجميع فئاته، فكان لمذهبه دور كبير فى الترابط والتضامن والتواد بين أبناء الشام(٤)،كما كان له أكبر الأثر فى عدم وجود تنافر عقائدى أو دينى يفكك الروابط الإقليمية(٥).

فعندما تعرض مسيحو جبل لبنان للظلم على يد عامل الخراج ببعلبك وخرجوا على هذا العامل فأرسل إليهم صالح بن على(٦) جيشاً لمقاتلتهم وأخرج منهم قوماً من ديارهم خارج جبل لبنان(٧).

فبعث الأوزاعى إلى الوالي صالح بن على رسالة توضح له موجبات الشرع، مما كان لها الأثر فى عودة أهالى جبل لبنان إلى ديارهم وتهدئة الأوضاع بتلك المنطقة، وكانت تلك الوقفة

---

(١) الرازى، الجرح والتعديل، ج١، صـ ٢٠٩.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٣٥، صـ ٢٢٠.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٣٥، صـ ١٥٧؛ الذهبى، سير أعلام النبلاء، ج٧، صـ ١١٠.

(٤) ابن سلام، الأموال، تحقيق أبو أنس سيد بن رجب، دار الهدى النبوى (مصر) و دار الفضيلة ،السعودية ،١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م،ج١، صـ ١٨٣-١٨٤؛ الرازى، الجرح والتعديل، ج١، صـ ٢١٠-٢١١؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٣٥، صـ ١٩٨-١٩٩.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، صـ ١١٥.

(٦) صالح بن على العباسى بن عبد المطلب العباسى الهاشمى، ولد عام ٩٢هـ/٧١١م، هو أول والى لبلاد الشام الشام ومصرفى العصر العباسي، أسس مدينة العسكر وجعلها عاصمة لمصر ، توفى عام (١٥١هـ/٧٦٨م). الفسوى، المعرفة والتاريخ،ج٣، صـ٣٨١؛ الكندى، الولاة والقضاة، دار عالم الكتب، بيروت، (د.ت)، صـ٩٧-١٠٢؛ المسعودى، مروج الذهب، ج٤، صـ ٨٧؛ الذهبى، تاريخ الإسلام، ج٩، صـ٤٣٦.

(٧) البلاذرى، فتوح البلدان، صـ ١٦٩؛ ابن سلام، الأموال، ج١، صـ ١٨٣-١٨٤، عبد الستار الشيخ، الإمام الأوزاعى، صـ ١١٨.

من الأوزاعى لها أعمق الأثر فى إلتفاف أهالى الشام حوله، وترسيخ مبدأ المواطنة والأخوة بين فئات المجتمع(١).

ووقوفه بجانب مسيحياً من أهل البقاع (٢)عندما تعرض لظلم من عامل الخراج(٣) فكتب الأوزاعى إلى عامل الخراج، فرفع عن المسيحي المبلغ الذى فرض عليه(٤).

ولعل ذلك يلفت الانتباه إلى خروج الآلاف لتشييع جنازة الأوزاعى من المسلمين والمسيحين واليهود وإصرار المسيحيين على دفن الأوزاعى فى قرية حنتوس خارج بيروت، وأن يكون ضريحه مجاوراً لمناطقهم عرفاناً بجميله عليهم(٥)،وهذا يدل على أثر الأوزاعى على المجتمع الشامى والقومية الشامية.

وكثيراً كان الأوزاعى يدعو إلى الألفة بين المسلمين، وضرورة وحدة الكلمة ولزوم الجماعة، وكان لهذا أكبر الأثر فى عدم وجود فرقة أو حرب أهلية بين أهالى الشام آنذاك، فقد تمتع المجتمع الشامى بحالة من الاستقرار خلال الحقبة التي عاشها الأوزاعى(٦)، وتمتع الأوزاعى بشخصية مؤثرة بين مواطني الشام مكنه ذلك من تقديم النصيحة لهم دائماً(٧).

٣-أما من الناحية السياسية:-

لقد شارك الأوزاعى فى الأحداث السياسية التي عاصرها وذلك من خلال تقديم الوعظ والنصح للخلفاء والولاة إما عن طريق المكاتبة أو عن طريق لقائهم ومحادثتهم، وقد مكنه

---

(١) أرسل إليه رسالة وقال له :" فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم واموالهم وحكم الله تعالى ﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾ ، وهو أحق ما وقف عنده رسول الله ﷺ ، فإنه قال: " من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه" البلاذرى، فتوح البلدان، صـ ١٦٩؛ ابن سلام، الأموال، ج١، صـ ١٨٣-١٨٤، عبد الستار الشيخ، الإمام الأوزاعى، صـ ١١٨.

(٢) البقاع: هي أرض واسعة تقع بين بعلبك وحمص ودمشق. ياقوت الحموى، معجم البلدان، ج١، صـ ٤٧٠.

(٣) كان عامل الخراج اسمه ابن الأزرق زمن الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور. الرازى، الجرح والتعديل، ج١،صـ ٢١٠.

(٤) الأصبهانى، حلية الأولياء، ج٦، صـ ١٤٣؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٣٥، صـ ١٩٨-١٩٩.

(٥) المباركفورى، مقدمة تحفة الأحوذى" شرح جامع الترمذى"، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج١، صـ ٤٦٣.

(٦) أبو زرعة، تاريخ أبو زرعة الدمشقى، صـ ٣٠٨-٣٠٩.

(٧) فقد كتب رسالة ذات يوم إلى أحد المسلمين يعظه وينصحه ويذكره بالدار الآخرة، فقال له:" أما بعد: فقد أحيط بك من كل جانب، وإنه يسار بك كل ليلة مرحلتان، فاحذر الله والقيام بين يديه، وأن يكون آخر العهد بك، والسلام". ابن الجوزى، صفة الصفوة، تحقيق خالد مصطفى طرسوس، دار الكتاب العربى، بيروت-لبنان، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، صـ ٨٣٤.

من ذلك المكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها في الشام وبعض الدول الإسلامية نتيجة انتشار مذهبه وفتواه في بعض المسائل التي عجز البعض عن الفتوى فيها.

فعلى سبيل المثال: عندما سقطت الشام في أيدى العباسيين انتشر الذعر في دمشق حاضرة الخلافة الأموية، واختفي الإمام الأوزاعي فقيه الشام، مدة من الزمن، حيث هرب إلى بيروت(١)، فأرسل إليه عبد الله بن علي رسولاً يسأله المجيء إلى حماه ومقابلته بها، فاستجاب الأوزاعي، وفى تلك المقابلة أجاب الأوزاعي عن أسئلة ابن على الذي أراد أن يأخذ منه فتوى ليستحل بها دماء بني أمية وأموالهم، فأجابه الأوزاعي بأنه لا يرضى بالطريقة التي تعامل بها العباسيون مع بن أمية، حيث نَكَّلُوا بهم وبأنصارهم، وبين له حرمة ذلك بكل قوة وصلابة، وثبات على الحق(٢).

هذا الموقف الشجاع من الإمام الأوزاعي جعل خلفاء بني العباس يوقرونه ويعترفون بفضله، وبعد تلك المقابلة عاد الأوزاعي إلى بيروت وفى طريقه وجد رسول عبد الله بن علي يخبره أن الوالي يعتذر له لسهوه عن تقديم العطاء له، ويبعث إليه بمئتي دينار، فقبلها الأوزاعي ووزعها على الفقراء(٣).

أما عن تلك النصيحة التى وجهها للخليفة العباسي المنصور، حين استدعاه إليه عندما دخل الخليفة الشام للاستماع منه وليأخذ منه ويقتبس عنه(٤)، فوعظه الأوزاعي موعظة طويلة ، وأشار عليه فيها أن يتحرى العدل فى الحكم(٥)، فقال له الأوزاعي:" يا أمير المؤمنين : قد كنت كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم أحمرهم وأسودهم ، ومسلمهم وكافرهم ، فكل له عليك نصيبه من العدل فكيف إذا اتبعك منهم فئام

(١) الأصبهاني، حلية الأولياء، ج٦، صـ ١٤١؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، صـ ١٨٠.
(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٣٥، صـ ٢١١.
(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٣٥،صـ١٩٧.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، صـ ١١٩.
(٥) الأصبهاني، حلية الأولياء، ج٦، صـ ١٣٦-١٤٠.

وراءهم فئام[١]، وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه ، أو ظلامة سقتها إليه[٢]. يا أمير المؤمنين: " إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك وكذلك يبقى لغيرك"[٣].

ومن خلا ل تلك المواقف نجد أن كلمة الأوزاعى كانت مسموعة ومطاعة عند خلفاء بنى العباس، ومما يؤكد ذلك عندما عرض " عبد الله بن على" عم الخليفة السفاح توليته القضاء، فرفض الأوزاعى[٤]، فأعفاه ولم يجبره على تولى القضاء إجلالاً له وتعظيماً لمكانته. وكما كان الأوزاعى معظماً عند الخلفاء العباسيين كان مقدراً ومهاباً عند ولاتهم على بلاد الشام ويؤيد ذلك : عندما دفن الأوزاعي وقف والى الساحل على قبره وقال:" رحمك الله يا أبا عمرو، فو الله لقد كنت لك أشد تقية من الذى ولانى ، فمن ظُلِم بعدك فَلْيصبِرْ"[٥] ، ومع ذلك فإن الأوزاعى لم يَدْعُ للخروج على ولاة الأمر أو منازعتهم سلطانهم، والتشجيع على التمرد عليهم.

(١) الفئام: الجماعة من الناس، لا واحد له من لفظه؛ الفيروزآبادى، القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت،١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ج٤، صـ ١٥٨.

(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ت)، ج٢، ص . ٣٣٨.

(٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق محمد قميحة، دار السلام للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٨م ج٣، صـ ١٦٢؛ الأصبهاني، حلية الأولياء، ج٦، صـ ١٣٧.

(٤) وكيع، أخبار القضاة، عالم الكتب، بيروت، (د.ت)، ج٣،صـ٢٠٧؛ الذهبى، سير أعلام النبلاء، ج١٠، صـ ١٢٠.

(٥) الرازى، الجرح والتعديل، ج١، صـ ٢٠٧؛ ابن عساكر، ج٣٥، صـ ٢٢٠؛ الذهبى، سير أعلام النبلاء، ج٧، صـ ١٢٦. يقصد بالساحل: ساحل لبنان المطل على البحر المتوسط.

Religious sects in the Levant and their impact on the two sides Political and intellectual during the first three centuries of migration (41 AH / 300 AH) (662 AD / 913 AD)

By

Mashallah Shanshan Othman Orabi

Prof. Dr. Ahmed Abdel Salam Nassef

Professor of Islamic History and Islamic Civilization, Faculty of Arts - Tanta University

Dr. Mohamed El Sayed Fayyad

Assistant Professor of Islamic History and Civilization, Faculty of Arts - Tanta University

Abstract:

The doctrine of Imam Al-Awza'i is one of the Sunni schools of jurisprudence that witnessed remarkable activity in the Levant during the first three centuries of migration, where the birth and stability of Al-Awza'i in the Levant had an impact on the spread of his doctrine there.

Al-Awza'i's school of thought belonged to hadith, so he measured life according to the texts of revelation and the Prophet's Sunnah, and the people of the Levant and the contemporary jurists in the Levant followed it on this approach.

That Islamic jurisprudence was not codified, and was not arranged before the era of al-Awza'i; But the circumstances required - for important reasons - to codify Islamic jurisprudence, until it became an

independent unit in its distinction and full maturity from what it was, so Al-Awza'i is considered the standard-bearer of this scientific activity in the Levant, in addition to his great merit in codifying the Prophet's hadith, which is the broad subject of Islamic jurisprudence.

Al-Awza'i wrote a book to deal with issues related to the provisions of war, the treatment of enemy personnel, and the distribution of spoils, which arose from the conquests at the beginning of the emergence of the Islamic call. Islamic

Imam Al-Awza'i influenced the Levantine society in all its categories, and his doctrine had a great role in the interdependence, solidarity and friendship among the people of Levant.

Imam al-Awza'i also participated in the political events that he was experiencing, by advising and advising the caliphs and rulers, either by writing or by meeting and talking with them.

Keywords: Religious sects, jurisprudence, Al-Awza'i.